زياد بن أبيه حياته وخطبه

أولا –ترجمة زياد بن أبيه:

وُلد في عام الهجرة أو قبله بقليل لسميّة جارية فارسية كانت للحارث بن كلدة الثقفي المشهور بطبّه، ويقال إنّه زوجها ثقفيًّا يسمى عُبيداً، ومن ثم كان يسمَّى في بعض الروايات زياد بن عبيد. ويذهب بعض الرواة إلى أنه إنما وُلد على فراش الحارث وأن عبيدا كان عبدا روميّا، ولم يكن ثقفيّا، وما نتقدم معه إلى عهد عمر، حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدّعيا أبوته، وقد تكون نسبة صحيحة، وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته.

خرج مع الجيوش الغازية في الشرق، وعهد إليه عتبة بن غزوان قائد عمر في فتوح الأبُلة تسجيل الغنائم وقسْمها في الناس، ممّا يدلّ على إتقانه الكتابة، والحساب. فلزم ولاة البصرة يكتب لهم. وأوفده واليها أبو موسى الأشعري إلى عمر، فأُعجب بذكائه ولسانه، ولكنه يأمر بعزله، فيقول له: يا أمير المؤمنين أعن عجز أم عن خيانة صرفتني، فيرد عليه: لا عن واحدة منهما ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك.

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتّخذه عبد الله بن عامر واليها كاتبا له، ويفسد ما بينهما فيعزله، حتى إذا صار العراق لعليّ وولّى على البصرة ابن عباس جعله على خراجها، وأنابه عنه أحيانا، وأظهر في أثناء نيابته له حنكة، ولما فسدت فارس على عليّ أرسل به إليها واليا عليها، فرمّ الفساد وأصلح الشّعث ورأب الصدع متوسّلا إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة.

ولمّا قُتل عليٌّ ظل على عهده لابنه الحسن، حتى إذا تحولت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس، فكاتبه معاوية متوعّدا، ثم أخذ يتلطف له ووسّط لديه المغيرة بن شُعبة الثقفي، ذاكرا ما بينهما من الرّحم، ومازال به، حتى دخل في طاعته، وفرح به فرحا عظيما. إذ كان يعرف فضله، وأنه لا غنى له عنه في استصلاح العراق، ولما صار إليه جمع الناس وصعد المنبر، وأجلسه بين يديه، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه، وشهدت بذلك منهم جماعة، غير أن كثيرين ظلوا يشكّون في هذا النسب ويتهمونه. ولم يلبث معاوية أن ولاّه البصرة وخراسان وسجستان سنة 45هـ، فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة، وبذلك أصبح واليا على العراق جميعه حتى وفاته سنة 53هـ للهجرة.

ثانيا-خطابة زياد بن أبيه:

زياد بن أبيه من مشاهير الخطباء، كان داهية حصيف الرأي حازما شديدا في الحق إلى حدّ العنف أحيانا مع كثير من الحلم والكياسة. وكان في خطبه حاضر الذهن طلق اللسان يطيل الخطب، وكلما طالت خطبته جادت. وقد كانت ألفاظه فصيحة وتراكيبه واضحة وأسلوبه جزلا متينا، وكان يعتمد الوعيد والتهديد في تأثيره في السامعين.

وزياد بن أبيه أول من ألّف كتابا في المثالب، قيل عرّض فيه بالعرب، وكذلك كان قد حثّ أبا الأسود الدؤلي على أن يضع للناس كتابا تضبط به قراءة القرآن (في النحو).

وكان زياد خطيبا لا يُبارى في جودة خطابته، يعرف كيف يصوغ كلمه صوغا تهشّ له الأسماع وتُصغي له القلوب والأفئدة، وقد نوّه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشّعبي: "ما سمعت متكلّما على منبر قط تكلّم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يُسيء إلا زيادا فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما". وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هما السياسة والمواعظ الدينية، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خلّفها عصر صدر الإسلام، وهي الملقبة بالبتراء سُمّيت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد.

لمّا حاول معاوية ان يستميل إليه زياد بن أبيه لم يجد فيه ميلا ولا لينا. فمازال معاوية يتلطّف ويتابع الجهد حتى ظهر على زياد شيء من اللين ولكن تريّث يومين أو ثلاثة يروّي في أمره. ثم إنّ زيادا أجمع أمره على أن يستجيب لدعوة معاوية بأن يقبل أن يلحق نسبه بأبي سفيان والد معاوية. والخطبة التالية تمهيد أمام الناس لانتقاله من شيعة الإمام علي بن أبي طالب إلى أن يدخل في سياسة معاوية:

"أيها الناسُ: ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم. لقد نظرتُ في أمور الناس منذ قتلِ عثمان وفكرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي في كلّ عيد يُذبَحون. ولقد أفنى هذان اليومان، يوم الجمل ويوم صفين، ما يُنيف على مائة ألف كلهم يزعم أنه طالبُ حق وتابع إمام، وعلى بصيرة من أمره. فإذا كان الأمر هكذا، فالقاتل والمقتول في الجنة. كلاّ، ليس الأمر كذلك، ولكن أشكل الأمر والتبس على القوم. وإني لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ، فكيف لأمرئ بسلامة دينه؟ ولقد نظرت في أمر الناس فوجدّت أحمد العاقبتين العافية. وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته-فقد حَمِدتْ طاعتكم-إن شاء الله".

ومن خطب زياد بن أبيه المشهورة "البتراء". فلما وليَ البصرة قدمها في غرّة جمادى الأولى من سنة 45هـ والفسق فيها كثير فاش ظاهرٌ. فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها. قائلا:

"أما بعدُ، فإنّ الجهالة الجهلاءَ والضلالة العمياء والغيَّ الموفيَ باهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام التي ينبتُ فيها الصغير ولا يتحاشى عنها

الكبير. كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدّه الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته. أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية؟ ألم يكن فيكم نُهاة تمنع الغُواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ قرّبتم القرابة وباعدّتم الدين: تعتذرون بغير العُذرِ وتُغضون على المختلس. كل امرئ منكم يذبُّ عن سفيه، صُنعَ من لا يخاف عاقبةً ولا يرجو معاداً، ما أنتم بالحلماء وقد اتّبعتم السفهاء. فلم يزل ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كُنوسا في مكانسِ الرّيب. حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسوّيها بالأرض هدما وإحراقا.

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلاّ بما صلح به أوّله: لين في غير ضعف، وشدّة في غير عنف، وإنّي أقسم بالله، لآخذنّ الوليّ منكم بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والسليم منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقولَ: انْجُ، سَعْدُ، فقد هلك سعيد. أو تستقيم لي قناتكم.

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن. وقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة: فمن غرّق قوما غرّقناه، ومن نقب عن بيت نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفنّاه فيه حيّا. فكفّوا عنّي أيديكم أكفف عنكم يدي ولساني، ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامّتكم إلا ضربت عنقه.

وقد كانت بينكم وبين أقوام إحنٌ، فجعلت ذلك دبرَ أذني وتحت قدمي. فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا، ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضي لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترا حتّى يبدي لي صفحته. فإن فعل ذلك لم أناظرهُ. فاستانفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم. فرُبَّ مبتئسٍ بقدومنا سَيُسَرُّ، وربَّ مسرورٍ بقدومنا سيبتئسُ."

وهذه الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره في حكم البصرة، وهو دستور أوضح فيه موادّ العقوبة، وأنه سيأخذ بالظّنة ويعاقب على الشبهة، وتصوّر كذلك رفق زياد برعيته، فهو لا يبطش للبطش، وإنما يبطش على الجرم.